الأكاديمية الأوربية للتُّراث القبطي
The European Academy for Coptic Heritage
(TEACH)
محاضرة بتاريخ الأحد ١٤ مارس ٢٠٢٤م

التَّطوُّر اللِّيتورجي للعبادة في أسبوع البَصخة المقدَّسة عبر العُصور (١)

الصَّوم الفصحي السَّابق لعيد القيامة وتغيُّر موعد بدايته مع القرون والاحتفال الفصحي بالعيد

تنويه: أودُّ التَّنبيه إلى أمرين؛

الأمر الأوَّل: سبق أن تكلَّمتُ في هذه الأكاديميَّة الموقَّرة (الأكاديميَّة الأوروبيَّة للتُّراث القبطي بلندن)، عن موضوع بعنوان ''خطأ تسمية أسبوع الآلام وما ترتب من ممارسات طبقاً لهذه التسمية'' وذلك في جزء من المحاضرة رقم ٣٥ في يوم ٢٦ نوفمبر سنة ٢٠٢١م، وهو ما تجدونه على الموقع الخاص بي تحت رقم ٢٦ للمحاضرات العامة بأوروبا، وعلى تطبيق التليجرام أيضاً تحت رقم ٢٥٨

الأمر الثَّاني: سأتكلم في هذه المحاضرة عن الأيام الثَّلاثة الأولى فقط من أسبوع البَصخة المقدَّسة – الاثنين والثُّلاثاء والأربعاء – طبقاً للوقت المتاح، على أن نكمل كلامنا عن الأيام الثَّلاثة الأخيرة من هذا الأسبوع المقدَّس – الخميس والجُمعة والسَّبت – في محاضرة أُخرى إن شاء الرَّب وعشنا.

في العُصور المبكِّرة للكنيسة المسيحيَّة، كان صَوم يومي الجُمعة والسَّبت السَّابقين لعيد القيامة هما يوما ''الصَّوم الفصحي'' استعداداً للعيد. ومن لا يمكنه صَوم اليومَين معاً، كان يصوم يوم السَّبت فقط، والسَّابق للعيد، وهو السَّبت الوحيد في السَّنة اللِّيتورجيَّة الذي يصام فيه بحسب التَّقليد القديم، وهو التَّقليد الممتد حتى اليَوم في الشَّرق المسيحي.

ومع حلول القرن الثَّالث الميلادي، عُرف صَوم الأيام السِّتة السَّابقة لعيد القيامة، في بعض الكنائس دون بعضها الآخر. وهو ما عرفناه من البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٦-٢٦٤م) الذي عاش في النِّصف الثَّاني من القرن الثَّالث الميلادي[١]. وهذه الأيام السِّتة (من الاثنين إلى السَّبت الكبير)، هي فقط أيام الصَّوم، لأنه لم يكن الصَّوم الأربعيني قد عُرف في كنيسة الإسكندريَّة حتى ذلك الوقت، وهو نفس النِّظام الذي ظلَّ معمولاً به في زمن البابا أثناسيوس الرَّسولي، حتى سنة ٣٣٣م، حيث عرفنا من الرَّسائل الفصحيَّة الخمس الأولى له (من سنة ٣٢٩- سنة ٣٣٣م) أن فترة الصَّوم السَّابق لعيد القيامة كانت أسبوعاً سابقاً للعيد، والذي عرف باسم ''أسبوع الفصح المقدَّس''، ويعني به صَوم الأيام السِّتة السَّابقة للعيد[٢]. وبدءاً من الرِّسالة الفصحيَّة السَّادسة للبابا أثناسيوس الرَّسولي، سنة ٣٣٤م، ورد ذكر الصَّوم الأربعيني، وكان يمتد لمدَّة ٣٥ يوماً تنتهي يوم أحد الشَّعانين، ويبدأ صَوم أسبوع الفصح من يوم الاثنين التَّالي له، وحتى السَّبت الكبير. والجدير بالذِّكر هنا أن الرَّسائل الفصحيَّة سواء للبابا أثناسيوس الرَّسولي بدءاً من الرِّسالة السَّادسة، أو للبابا كيرلُّس الكبير، كانت تفرِّق بين الصَّوم الأربعيني المقدَّس، وصوم أسبوع الفصح.

وهذا يوضح لنا أنَّ الذي أدخل الصَّوم الأربعيني إلى كنيسة الإسكندريَّة وضمَّه إلى صَوم أسبوع الفصح هو البابا أثناسيوس الرَّسولي، وبالتَّحديد في سنة ٣٣٤م، وليس البابا ديمتريوس الكرَّام، كما يذكر ابن كَبَر في البَاب التَّاسع عشر من كتابه ''مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة''، وكما ورد أيضاً في كتبنا الكنسيَّة، مثل كتاب السِّنكسار في يوم ١٢ بابه والذي يوافق نياحة البابا ديمتريوس الكرَّام (١٨٩-٢٣١م)، وأيضاً في يوم ١٠ هاتور، وكتاب قطمارُس الصَّوم المقدَّس الكبير.

1- Annick Martin, *Athanase d'Alexandrie et l'Eglise d'Egypte au IVe siècle* (328-373), Rome, 1996, p. 162.

٢- بحسب تحقيق العُلماء الذين درسوا بدقة رسائل البابا أثناسيوس الرَّسولي الفصحيَّة، فإن الرَّسائل الخمس الأولى له تخلو تماماً من أي ذكر للصوم المقدَّس، حيث يبدأ ذكره في الرِّسالة السَّادسة له والتي كتبها سنة ٣٣٤م. وكان العالم الألماني إدوارد شفارتس (١٨٥٨-١٩٤٠م) هو أوَّل من لاحظ ذلك في سنة ١٩٣٥م، وهو ما تأكد منه العُلماء بعد ذلك. وإنَّ أقوى دليل على صحة هذا التعديل هو أن البابا الإسكندري تيموثاوس الثَّاني (٤٥٥-٤٧٧م) البطريرك الـ ٢٦ الذي عاش بعد زمن القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي بأقل من مائة عام، كان قد استشهد بأجزاء من الرِّسالة رقم (٢٤) قائلاً إنه يستشهد بالرِّسالة الفصحيَّة الثَّانية للقدِّيس أثناسيوس، المكتوبة في سنة ٤٦ للشُّهداء، وهي السَّنة التي تقابل سنة ٣٣٠م. كما استشهد أيضاً بأجزاء من الرِّسالة رقم (١٤) قائلاً إنه يستشهد بما ورد في الرِّسالة الفصحيَّة رقم (٣) لأثناسيوس.

E Schwartz, *Zur Kirchengeschichte des vierten Jahrhunderts, in Zeitschrift für die Neutestamentliche Wissenschaft* (*ZNW*), 34, De Gruyter - Germany, 1935, p. 129-213 ; Id., *Die Osterbriefe, in Gesammelte Schriften III*, Berlin, 1959, p. 1-29.

وخلال الفترة من القرن السَّادس إلى القرن التَّاسع للميلاد، وبرغم أنَّ المعلومات اللِّيتورجيَّة لدينا شحيحة في هذه الفترة، إلاَّ أنه يمكننا أن نعرف ثلاثة تطوُّرات مهمَّة حدثت في هذه الفترة؛

التَّطوُّر الأوَّل، في القرن السَّادس الميلادي صارت فترة الصَّوم الأربعيني أربعين يوماً، أي ستَّة أسابيع، بدل خمسة أسابيع، اقتداء بالكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى، يضاف إليها في نهايتها أسبوع البَصخة.

التَّطوُّر الثَّاني، في القرن السَّابع الميلادي، أضيف أسبوع سابع في بداية الصَّوم الكبير، هو أسبوع هرقل. فصارت مدَّة الصَّوم الكبير سبعة أسابيع، يضاف في آخرها أسبوع البَصخة المقدَّسة.

التَّطوُّر الثَّالث، خلال القرون من الثَّامن إلى العاشر للميلاد، ظهر ما يُعرف باسم ''جُمعة ختام الصَّوم''. وبانتهاء جُمعة ختام الصَّوم، يبدأ أسبوع الفصح في اليَوم التَّالي مباشرة، وهو يوم سبت لعازر وحتى السَّبت الكبير. وهذا ما يطلعنا عليه الأنبا ساويرس بن المقفَّع في القرن العاشر الميلادي، في كتابه ''الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين''، حيث يقول:

''والأسبوع الأخير الذي هو أسبوع البَصخة ... نبتدئ به من يوم سبت لعازر إلى يوم سبت النُّور. فيكون أوَّل الأربعين يوماً التي صامها ربُّنا عنَّا يوم الاثنين من الأسبوع الثَّاني(٣) وآخرها باكر يوم السَّبت سبت لعازر في الأسبوع السَّابع ... ومن باكر يوم السَّبت الذي هو سبت لعازر نبتدئ بالصَّوم من أجل آلام مخلِّصنا وأوجاعه عنَّا ... إلى عشيَّة يوم سبت النُّور''(٤).

أي أن أسبوع البَصخة المقدَّسة صار يبدأ من سبت لعازر، وليس من يوم اثنَين البَصخة كما كان معروفاً من قبل. وجدير بالذِّكر أنَّ هذا هو نفسه، طقس كنيسة أورشليم، والتي يُحسب فيها يوم أحد الشَّعانين أنه ضمن أسبوع البَصخة المقدَّسة(٥). وكلام أنبا ساويرس بن المقفَّع في القرن العاشر الميلادي، لم يكن سوى تذكير بطقس وتقليد مستقرَّين في الكنيسة منذ قرون خلت.

ولكن الأمر الذي يدعو إلى الغرابة أنه في القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر للميلاد، يذكر كلٌّ من يوحنَّا بن أبي زكريَّا بن سباع في كتابه ''الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة'' (البَاب ١٠١)، وأيضاً شمس الرِّئاسة أبو البركات بن كَبَر في كتابه ''مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة'' (البَاب ١٨) أنَّ أسبوع البَصخة المقدَّسة يبدأ غروب يوم أحد الشَّعانين، أي مساء يوم أحد الشَّعانين، وهي البداية الطَّقسيَّة ليوم اثنَين البَصخة، لأنَّ اليَوم اللِّيتورجي يبدأ من غروب اليَوم السَّابق له.

هذا التحوُّل اللِّيتورجي في كنيسة الإسكندريَّة لموعد بدء أسبوع البَصخة المقدَّسة، كان بسبب دخول طقس ''التَّجنيز العام'' الذي أدخله إلى الكنيسة البابا خريستوذولُوس (١٠٤٦-١٠٧٧م) في النِّصف الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي. وهو الطَّقس الذي يختص بكنيسة مصر وحدها، ولا تعرفه الكنائس الأُخرى، والذي تمارسه بعض الكنائس حاليًّا أثناء التَّناول من الأسرار المقدَّسة، ولا تعقيب !! برغم أنَّ ابن سباع في القرن الثَّالث عشر الميلادي، يضع عنواناً لهذه الصَّلاة هو: ''تجنيز الأحياء يوم أحد الشَّعانين تاسع النَّهار خارجاً عن القُدَّاس''. وفي إحدى نسخ ''الجوهرة النَّفيسة ...'' نقرأ: ''وينصرف الشَّعب بسلام إلى منازلهم فرحين بهجين إلى وقت السَّاعة التَّاسعة من النَّهار''(٦). أمَّا ''كتاب دلاَّل وترتيب جمعة الآلام وعيد الفصح المجيد'' طبعة ١٩٢٠م (ص ٨٦)، فينقل عن كتاب الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة قوله: ''ثمَّ بعد التَّاسعة من النَّهار يوم الشَّعانين يحضر جميع الشَّعب المسيحي ... إلخ''، ولكنَّه يحذف عبارة: ''ثمَّ بعد التَّاسعة من النَّهار يوم الشَّعانين''، ويستبدل عبارة ''يحضر جميع الشَّعب المسيحي ...'' بعبارة ''يجتمع الشَّعب المسيحي ...''. لن أستطيع الاستطراد هنا، لأني سأخرج عن الموضوع الذي نتكلَّم عنه. فالمعنى المقصود بصلاة التَّجنيز العام، يفيد بأنَّ أسبوع البَصخة المقدَّسة لم يبدأ بعد(٧).

٣- وهو هنا يستثني الأسبوع الأوَّل من الصَّوم، وهو المعروف بأسبوع هرقل.

٤- أي مع ختام صلوات يوم الجُمعة العظيمة التي تنتهي قُرب نهاية اليَوم.

انظر: الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين، الدُّر الثمين في إيضاح الدين، إصدار مدارس التَّربية الكنسيَّة بكنيسة رئيس الملائكة ميخائيل بطوسون - شبرا، ١٩٨٧م، ص ١٨١

5- Dom Emmanuel Lanne, *Textes et rites de la liturgie pascale dans l'ancienne église Copte*, dans *L'Orient Syrien*, 6, 1961., p. 287.

٦- يوحنَّا بن أبي زكريَّا بن سباع، كتاب الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة، حقَّقه ونقله إلى اللاَّتينيَّة الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسيسي، مؤلَّفات المركز الفرنسيسكاني للدِّراسات الشَّرقيَّة المسيحيَّة، القاهرة، ١٩٦٦م، البَاب ١٠٠، ص ٣٢٢

٧- **رشُّ الماء في نهاية قُدَّاس عيد الشَّعانين وصلوات التَّجنيز العام**، هو للشَّعب وليس للسَّعف، وهو الطَّقس العادي الذي يعقب نهاية كلِّ قُدَّاس. وليس ثمَّة علاقة بين رشِّ الماء هذا، وبين صلوات التَّجنيز العام، والتي صارت تُقام في نهاية قُدَّاس هذا اليَوم العظيم. فليس في صلوات التَّجنيز أيُّ صلوات تُقال على المياه، ولا مياه تُرَش على النَّاس، ولكن بخورٌ يُرفع فقط، كأيِّ صلاة تجنيز تُصلَّى على مدار السَّنة لأيِّ واحد من

ويلزم الإشارة هنا إلى أنه في العُصور المبكِّرة للمسيحيَّة، وفي الكتابات الكنسيَّة المبكِّرة ولاسيَّما اللِّيتورجيَّة منها، لا نكاد نعثر على معنى – ولو ضمني – يعبِّر عن وجود خدمة طقسيَّة كانت تمارَس في هذا ''الصَّوم الفصحي'' كاحتفال تمهيدي لعيد الفصح العظيم. وأمَّا من جهة ''الاحتفال اللِّيتورجي الفصحي''، فالاحتفال التَّقليدي بعيد القيامة، قد عُرف في ليلة السَّبت/ الأحد للعيد، والتي تُسمَّى *Pascal vigil service* ولدينا شواهد واضحة من القرن الثَّاني الميلادي بإقامة احتفال ليتورجي واحد في هذه اللَّيلة، يجمع بين تذكار آلام الرَّب وقيامته معاً.

فيُطلعنا مقال بعنوان: ''حول الفصح'' *peri pascha* للأُسقُف مليتو Melito أُسقُف ساردس (+١٩٠م)[٨]، عن الاحتفال بآلام المسيح وفرح قيامته معاً في خدمة ليتورجيَّة واحدة في ليلة القيامة، في هذه الفترة المبكِّرة من تاريخ الكنيسة.

أمَّا الاحتفال بآلام الرَّب منفصلة عن قيامته، فتعود أوَّلاً إلى كنيسة أورشليم، كما تخبرنا السائحة الإسبانية إيجيريا[٩]، ومنها أخذت تنتشر تدريجياً وببطء إلى كافة أنحاء العالم المسيحي، في غضون القرن الرَّابع الميلادي نفسه.

بين كلمتي "فصح" و "بصخة"

الكلمة ''فصح'' هي في أصلها كلمة آراميَّة أي عبريَّة دارجة (فصحه)، وتعني Passover أي عبور، أي اجتياز الملاك المهلك للبيوت التي عليها دم خروف الفصح[١٠]، أي أنَّ كلمة ''فصح'' تعني عبوراً من الموت إلى الحياة. والقدِّيس إيريناؤس (١٣٠–٢٠٠م) ومعه العلاَّمة ترتليان (١٦٠–٢٢٥م)، استخدما كلمة ''**فصح**'' للدَّلالة على يوم الجُمعة العظيمة[١١].

أمَّا كلمة ''بصخة'' فهي أيضاً آراميَّة أي عبريَّة دارجة. وقد انتقلت الكلمة ''بصخة'' بنفس نطقها إلى اللُّغة اليونانيَّة πάσχα وإلى اللُّغة العربيَّة أيضاً، وإلى كثير من اللُّغات الأوروبيَّة الحيَّة، وهي تعني ''عبور'' Passover . والجدير بالذِّكر هنا، أنه لا علاقة لهذه الكلمة بمعنى ''الألم'' أو ''الآلام''. فالكلمة اليونانيَّة التي تفيد معنى الألم هي πάσχω (بصخو). وكلمة ''بصخو'' تختلف في معناها عن كلمة ''بصخة''. وربما حدث هذا التَّداخل بسبب الكَّلمة اللاَّتينيَّة passio والتي تعني الألم Suffering . ولقد أُطلقت كلمة ''بصخة'' في الكنيسة المسيحيَّة الأولى على التَّذكار السَّنوي لموت الرَّب وقيامته معاً، أي على يوم الجمعة العظيمة وعيد القيامة معاً[١٢].

وكتاب ''التَّقليد الرَّسولي'' الذي دُوِّن قبل سنة ٢٣٥م، يتحدث عن ''**صومُ الفصح**'' ويقصد به صوم يومي الجُمعة والسَّبت. كما يتحدَّث عن ''**يوم البَصخة**'' ويعني به يوم السَّبت الكبير. وهنا لا يفرِّق كتاب ''التَّقليد الرَّسولي'' بين كلمتي ''فصح'' و ''بصخة''.

المنتقلين. الكنائس الشَّرقيَّة – باستثناء الكنيسة المارونيَّة التي تتبع الطَّقس اللاَّتيني – لا تعرف طقساً لمباركة السَّعف. أمَّا التَّقليد اللاَّتيني الغربي، فهو وحده الذي يعرف طقس مباركة السَّعف الذي يحمله الشَّعب في هذا اليَوم. وقد كان طقساً مطوَّلاً في البداية، ولكنَّه اختُصر الآن. وأمَّا الكنيسة البيزنطيَّة، فلديها صلوات محدَّدة تُصلَّى على السَّعف في هذا العيد. ومنذ سنة ٣٩٧م كان يتم تبريك السَّعف في هذا اليَوم في كلِّ كنائس ما بين النَّهرين.

٨– مليتو أُسقُف ساردس (+ ١٩٠م) هو مؤلِّف كنسي خصيب الإنتاج، قام بزيارة للأراضي المقدَّسة. ولا يُعرف شيء عن حياته. وقد ذكره يوسابيوس القيصري (٢٦٤–٣٤٠م) في تاريخه الكنسي (Eusebius, *H.E.*, 5:24) كواحد من الأنوار المضيئة في سماء آسيا. ويذكر يوسابيوس أيضاً (٢:٢٦:٤) مؤلَّفاته التي وصلت إلى حوالي عشرين مؤلَّفاً. ومن بينها كتابان عن الفصح، وكتاب عن المعموديَّة. وجديرٌ بالذِّكر هنا، أنه حتى سنة ١٩٤٠م، لم يكن يُعرف سوى القليل من كتاباته، حين عُثر على كثير منها بعد هذا التَّاريخ المذكور.

وقد أشار العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠–٢١٥م) في بحث له عن الفصح، أشار إلى الكتاب الذي ألفه مليتو عن نفس هذا الموضوع.

وكان مليتو من أبرز المؤيِّدين للاتجاه بالاحتفال بعيد الفصح في الرَّابع عشر من نيسان، بغض النَّظر عن اليَوم من الأسبوع، الذي يقع فيه العيد. وهذا التَّقليد قد ظهر أوَّلاً في آسيا الصُّغرى، وساد الاعتقاد آنئذ أنه مأخوذ عن القدِّيسَين يوحنَّا وفيلبس الرَّسولَين، كما يذكر يوسابيوس. وقد تبنى هذا الاتجاه مليتو أُسقُف ساردس، ونازعه في ذلك أبوليناريوس أُسقُف هيرابوليس، والذي له هو الآخر مؤلَّفات كثيرة، كما يقول يوسابيوس في تاريخه الكنسي (٢٧:٤).

9- Egeria, *Diary of A pilgrimage*, Translated and Annotated by George E. Gingras, New York, 1970.

١٠– خروج ١٣:١٢

11- T.P. Gilmartin, *Good Friday*, in *The Catholic Encyclopedia*, vol. 6, edited by Charles G. Herbermann and others, New York, 1913, p. 643.

12- Cross, F.L. & Livingstone, E.A. *The Oxford Dictionary of The Christian Church (ODCC)*, (2nd edition), 1988, p. 1039.

وفي غضون القرن الخامس الميلادي، بدأ الحديث في مصر عن الأسبوع السَّابق لعيد القيامة، ينحصر في تعبير ''أسبوع البَصخة''. أمَّا تعبير ''أسبوع البَصخة'' أو ''البَصخة المقدَّسة'' أو ''البَصخة الكبيرة'' فنجده في كتب المراسيم الرَّسوليَّة، التي دوِّنت في أواخر القرن الرَّابع الميلادي، وفي القانون رقم (٥٧) من قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م) بطريرك الإسكندريَّة، في أواخر القرن الخامس الميلادي، وأيضاً في ''قوانين الرُّسُل'' في تقليد الكنيسة القبطيَّة (٦٦:١)، والتي دُوِّنت في حدود هذا الوَقت عينه، وفي ''قوانين هيبوليتس'' القبطيَّة (القانون ٢٢)، والمعروفة باسم القوانين المصريَّة، والتي دُوِّنت في أوائل القرن السَّادس الميلادي، وفي القوانين الكنسيَّة المصريَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير (القانون ٣٠)، في غضون هذا التَّاريخ المذكور. وفي الدِّسقوليَّة العربيَّة، التي ترجمت إلى العربيَّة من كُتُب المراسيم الرَّسوليَّة في القرن الحادي عشر الميلادي.

ومن ثمَّ فقد توارى تقريباً تعبير ''أسبوع الفصح''، وحلَّ محلَّه تدريجيًّا تعبير ''أسبوع البَصخة''. ومن أجل هذا نقرأ في القرن العاشر عند الأنبا ساويرس بن المقفَّع (تنيَّح بعد سنة ٩٨٧م) تعبير ''أسبوع البَصخة الذي هو أسبوع الفصح''[١٣].

ومع أواخر القرن السَّابع الميلادي، ظهر في الكنيسة البيزنطيَّة تعبير ''أسبوع الآلام الخلاصيَّة''، وهو التَّعبير الذي نقرأ عنه في القانون رقم (٨٩) من قوانين مجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م. وهو ما بدأ يتسحَّب على الكنيسة القبطيَّة، رويداً رويداً حتى رأينا تعبير ''ترتيب جُمعة الآلام المحيية'' في مخطوطات ترتيب البيعة والتي جرت نساختها منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وبالتَّحديد سنة ١٤٤٤م، وحتى أوائل القرن العشرين للميلاد وبالتَّحديد سنة ١٩١١م. إلاَّ أنه بعد القرن الخامس عشر الميلادي، أصبحنا نجد بعض مخطوطات نادرة باسم ''دلاَّل جُمعة الآلام''.

وهكذا خلت كُتُب ومخطوطات الكنيسة القبطيَّة من تعبير ''أسبوع الآلام'' أو ''جُمعة الآلام''، وهو التَّعبير الذي لا نجده في كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة، وقوانينهم، وحتى في قوانين بطاركة الكنيسة القبطيَّة في العُصور الوُسطى.

بدء ظُهور تعبير "جُمعة الآلام" أو "أسبوع الآلام"

أمَّا يوحنَّا بن أبي زكريَّا بن سباع في كتابه ''الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة''، فهو الوحيد الذي ورد عنده تعبيرات: ''جُمعة الآلام''، و ''ألحان الآلام'' ولكنَّه حين يشير إلى الكتاب الكنسي المستخدم في صلوات هذا الأسبوع الأخير في الكنيسة فيدعوه: ''كتاب البصخة''[١٤]. وهو ما التزمت به الكنيسة القبطيَّة حتى زمن البابا كيرلُّس الخامس (١٨٧٤-١٩٢٧م) حين طُبع في عهده وبأمره، في القاهرة، كتاب البَصخة المقدَّسة (قبطي عربي) حسب ترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، عني بطبعه القُمُّص باخوم البرموسي، سنة ١٩٢١م. ولكن ممَّا يؤسف له أن يُطبع في عهده أيضاً وبأمره في القاهرة ''كتاب دلاَّل وترتيب جُمعة الآلام وعيد الفصح المجيد، حسب تقليد وترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة (!!!!!)، عني بتصحيحه وتنقيحه وضبطه وطبعه، القُمُّص فيلوثاؤس المقاري، والقُمُّص برنابا البرموسي، والمعلِّم ميخائيل جرجس مرتِّل الكنيسة المرقسيَّة الكُبرى، سنة ١٩٢٠م. ومنذ هذا التَّاريخ حين يطبع قطمارُس لأسبوع البَصخة المقدَّسة، يُسمَّى ''قطمارُس أسبوع الآلام'' فحسب، فداست المطابع – وفي عجلة من أمرها – تقليدنا القديم الذي حفظناه مكتوباً كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، على ضوء الشُّموع ومصابيح الكيروسين.

ومع مرور السِّنين، شاع بين الأقباط – مع الأسف – تعبير ''أسبوع الآلام'' حتى طغى على ما عداه من مسمَّيات، وتشترك معهم في هذه التَّسمية الكنيسة الرُّوسيَّة. أمَّا في الكنيسة اليونانيَّة اليوم فيدعونه ''الأسبوع المقدَّس العظيم''، بينما يدعوه اللاَّتين ''الأسبوع العظيم'' أو ''الأسبوع المقدَّس''. والجدير بالذِّكر أنَّ اللاَّتين يُطلقون تعبير ''أسبوع الآلام'' على الأسبوع الذي يسبق أحد الشَّعانين، وهو الأسبوع الذي يدعوه اليونانيُّون باسم ''أسبوع الشَّعانين''[١٥].

١٣- الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين، الدُّر الثمين في إيضاح الدين، مرجع سابق، ص ١٨٠

١٤- يوحنَّا بن أبي زكريَّا بن سباع، مرجع سابق، البَاب ١٠٠، ص ٣٢٣ ؛ البَاب ١٠١، ص ٣٢٤، ٣٢٥ ؛ البَاب ١٠٢، ص ٣٢٩

١٥- البطريرك هزيم وسواه، زمن التَّريودي، منشورات النُّور، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١١٥

تعقيب لما تعنيه مسمَّيات هذا الأسبوع الأخير

بسبب التَّسمية غير التَّقليديَّة ''أسبوع الآلام''، فقد صاحبها ممارسات طقسيَّة غير تقليديَّة أيضاً، ففي هذا الأسبوع المقدَّس العظيم، أسبوع نجاتنا من الموت والهلاك، صار الهيكل الذي هو السَّماء على الأرض، يسدل على بابه ستر أسود! والكنيسة بيت الملائكة ومحل الأفراح ومسكن الله مع النَّاس، تُوشَّح أعمدتها وجدرانها بالسَّواد! والمنجليَّة التي يُقرأ من عليها إنجيل خلاصنا تغطى بستر أسود! ويلبس الإكليروس ملابس قاتمة تعبيراً عن الحداد! أمَّا الأقصى صعوبة من هذا كله، فهي ملابس الخدمة القاتمة أو السَّوداء في قُدَّاس خميس العهد الجديد. ألسنا نعرف أنَّ قانون الكنيسة القبطيَّة تحديداً ومنذ القرن الخامس الميلادي، يقول بأن تكون ملابس الخدمة بيضاء أي غير ملوَّنة؟[١٦]

الجدير بالذِّكر أنه لم يرد عن هذه المظاهر السَّابق ذكرها أيَّة إشارات وثائقيَّة قبل القرون الوُسطى. وإنَّ مغالاتنا في إظهار مظاهر الحُزن هذه، قد دفعنا أيضاً إلى المغالاة بمظاهر خارجيَّة مقابلة، حينما وضعنا ستائر بيضاء وحمراء في أرجاء الكنيسة في فترة الخمسين المقدَّسة، وهي مظاهر لا تستطيع أن تُشيع في نفوسنا روح الفرح، لأنَّ فرح القيامة هو فرحٌ داخلي اختباري. ''بالموت داس الموت، والذين في القبور أنعم لهم بالحياة الأبديَّة''. هذا هو الفرح الحقيقي الذي تزينا به الكنيسة. ولسنا نحن الذين نزينها.

وهذه المغالاة في المظاهر الخارجيَّة والتي ازدادت طغياناً مع مرور السِّنين، قد تسحَّبت إلى تزيين الكنيسة في صلوات الإكليل المقدَّس، بشكل تحوَّلت الكنيسة بسببه إلى شبه مسرح أو قاعة احتفال!! ففقدنا هيبة بيت الرَّب ولم نعد ندخله بخوف ورعدة، بيت الرب الذي هو بيت التَّوبة والأسرار، ومحل سكنى الله مع شعبه. فهل حوَّلنا الكنيسة بيت الله إلى بيتنا.

إنَّ تعبير ''أسبوع الآلام'' هي تسمية غير تقليديَّة، لأنها في الحقيقة ليست آلاماً فحسب، ولكنَّها آلامٌ خلاصيَّة، أو آلامٌ محيية، وشتَّان بين الآلام والآلام الخلاصيَّة. فالآلام فحسب، لا تعني سوى التَّوجُّع والمعاناة والعقاب، وأمَّا الآلام الخلاصيَّة أو المحيية، فتعني الآلام التي جازها الرَّب من أجلنا لنعبُر كلُّنا بها معه إلى القيامة والحياة. وهكذا تحوَّل مفهوم الألم في المسيح من وسيلة عقوبة إلى هبة إلهيَّة، تُفضي بمن يجوزها إلى الحياة والمجد.

إنَّ مضادة أسبوع البَصخة كلِّها، هي كنيسة فرحانة بمسيحها المتألم! كيف لا وهو قد حمل في نفسه حزنها عنها. ففي ضعفه وآلامه تناجيه: ''لك القوَّة والمجد''. وفي رفعه على الصَّليب بعد أن نكَّس الرأس وأسلم الرُّوح تناجيه: ''أيها الابن الوحيد وكلمة الله الذي لا يموت. قدُّوسٌ أنت يا من أظهرت بالضَّعف ما هو أعظم من القوَّة''. وعند إنزاله من على الصَّليب ليوضع في القبر، يكون لحن دفنه هو: ''كرسيُّك يا الله إلى دهر الدَّهر، قضيب استقامة هو قضيب مُلكك'' وهو اللَّحن المعروف باسم **Πεκⲑⲣⲟⲛⲟⲥ** (بيك إثرونوس). وما هذا اللَّحن سوى تعبير عن حيرة الكنيسة؛ هل تحزن لموت عريسها أم تفرح لخلاصها؟ فجاءت نغمات اللَّحن مزيجاً من الشُّعورَين معاً.

ويوم السَّبت الكبير الذي كان الرَّب فيه في عُمق القبر وظلمته، تدعوه الكنيسة ''سبت الفرح والنُّور''. هذا هو سرُّ الموت الذي ماته المسيح، موت يهبنا الحياة. هل سمعتَ من قبل عن ألحان جنائزيَّة تبعث سروراً وسكينة في النَّفس؟ تعال اسمعها في الكنيسة القبطيَّة في أسبوع البَصخة المقدَّسة. ألعلَّ هذا بعينه هو ما أشار إليه بولس الرَّسول عندما قال: «أفرحُ في آلامي»؟

مراحل تطوُّر العبادة في أسبوع البَصخة المقدَّسة

يمكننا تقسيم أسبوع البَصخة المقدَّسة إلى نصفَين واضحَين من الوجهة الطَّقسيَّة. فأيام الاثنين والثُّلاثاء والأربعاء من البَصخة المقدَّسة، يطغي عليها سمةٌ واضحةٌ فريدة، لا تعرفها أيُّ أيام أُخرى في السَّنة اللِّيتورجيَّة. ففي هذه الأيام الثَّلاثة، لا يُرفع بخور في الكنيسة رمزٌ للمسيح فصحنا، والذي كان يرمز إليه خروف الفصح، حيث كان يوضع تحت الحفظ إلى اليوم الرَّابع عشر من نيسان، وبدءاً من اليَوم العاشر من الشَّهر. وبدءاً من يوم أربعاء البَصخة المقدَّسة، تُمنع القُبلة الطَّقسيَّة وحتى إلى عشيَّة عيد القيامة. فمنع القُبلة هنا، هو تذكيرٌ لنا بالقُبلة الغاشة التي ليهوذا، والتي بها سلَّم مُعلِّمه إلى الصَّليب. أمَّا أيام

١٦- القانون رقم ٢٨ من قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني ال ٢٨ من باباوات الكنيسة القبطيَّة.

الخميس والجُمعة والسَّبت، وهي بقيَّة أيام أسبوع البَصخة المقدَّسة، فهي تُعتبر بمثابة جزء من الاحتفالات الفصحيَّة، حيث يُبرز كلٌّ منها وجهاً من أوجه سرِّ الفصح، حتى تُكلَّل بيوم الفصح العظيم، يوم عيد القيامة المجيدة.

وفي زمن البابا غُبريال الثَّاني بن تُريك (١١٣١-١١٤٥م) وبمساعدة رُهبان دير القدِّيس أنبا مقار، عمل كتاباً وسمَّاه ''البَصخة''، ورتَّب فيه نُبوَّات وأناجيل لبعض سواعي الصَّلوات النَّهاريَّة واللَّيليَّة، وأناجيل فقط من غير نُبوَّات لبعض سواعي الصَّلوات الأُخرى، وصاروا يستعملون ذلك بطول جُمعة البَصخة. واستمر الحال كذلك، إلى أن جلس المكرَّم الأنبا بطرس أُسقُفاً على مدينة البهنسا، فوجد أنه لسواع، نُبوَّات كثيرة وإنجيل، ولأُخرى لم يكن لها غير إنجيل واحد، ولم يكن فيها نُبوَّات، فرتَّب كتاب البَصخة المستعمل في البيعة القبطيَّة الآن، وعمل لكلِّ ساعة نُبوَّات وأناجيل كلَّ يوم كما يلائمه، ورتَّب لكلِّ يوم موعظتَين، واحدة لباكر، والأُخرى لآخر النَّهار[١٧]. ولكن العناصر اللِّيتورجيَّة الأساسيَّة التي شكَّلت طقس صلوات هذا الأسبوع المقدَّس، فهي قديمة، لأنَّ بعض طروحات البَصخة المقدَّسة على سبيل المثال، وُجدت بالقبطيَّة الصَّعيديَّة في مخطوطات تعود إلى القرن التَّاسع الميلادي.

وهذا التَّعديل الذي طرأ على قطمارُس أسبوع البَصخة المقدَّسة، ابتداءً من القرن الثَّالث عشر الميلادي، وبرغم عظم أهميَّته، إلاَّ أنه يبدو لي، أنه قد فتح بابا لاجتهاد النُّسَّاخ، حتى صار النَّاسخ القبطي يُضيف على نسخته الخاصة التي يستعملها في الكنيسة، ما يجده مناسباً من النُّبوَّات وفصول العهد القديم. وبتعدُّد مخطوطات قطمارُسات البَصخة المقدَّسة، مع تباين فصولها، لاسيَّما من العهد القديم، انتقل هذا بالضَّرورة إلى قطمارُسات أسبوع البَصخة المطبوعة، حتى صارت هناك أكثر من طبعة لهذا القطمارُس، لا تتَّفق كلُّها في عدد الفُصول التي تُقرأ، سواء من العهد القديم أو الجديد.

لذلك لم تكن صلوات البَصخة المقدَّسة قد توحَّدت في ربوع البلاد حتى إلى ما بعد القرن الرَّابع عشر الميلادي، كما يذكر ابن كَبَر. فهناك بصخة المصريِّين أي أهل مصر (وهي كنائس مصر القديمة)، وبصخة رُهبان دير شهران (وهو المعروف حاليًّا بدير الأنبا برسوم العريان بالمعصرة)، وبصخة رُهبان دير القدِّيس أنبا مقار، وبصخة رُهبان دير سدمنت (الفيوم)، وبصخة أهل الصَّعيد، وبصخة الإسكندرانيِّين.

واستقرَّ حاليًّا، أن تُصلِّي الكنيسة القبطيَّة في البَصخة المقدَّسة، خمس سواع مسائيَّة وخمس سواع صباحيَّة، حيث يبدأ اليَوم الطَّقسي أو اليَوم الكنسي من عشيَّة اليَوم السَّابق له. وهكذا تجمَّعت صلوات سواعي البَصخة إلى مجموعتَين، الأولى مسائيَّة والأُخرى صباحيَّة.

ولكنَّ الأصل في هذه السَّواعي، أنها كانت تُصلَّى على مدار النَّهار واللَّيل في تواصل، كلُّ ساعة في وقتها المحدَّد. حيث تُصلَّى السَّاعة الأولى المسائيَّة في السَّادسة مساءً بالتَّوقيت الإفرنجي المعروف لدينا الآن. والسَّاعة الثَّالثة المسائيَّة، في التَّاسعة مساءً. والسَّادسة المسائيَّة، تكون في منتصف اللَّيل تماماً. والتَّاسعة المسائيَّة تُصلَّى في الثَّالثة بعد منتصف اللَّيل. والحادية عشرة تصلَّى في الخامسة صباحاً. ثمَّ تبدأ صلوات السَّاعة الأولى الصَّباحيَّة، في السَّادسة صباحاً. والسَّاعة الثَّالثة الصَّباحيَّة، في التَّاسعة صباحاً، وهكذا.

أمَّا تسبحة البَصخة **ⲑⲱⲕ ⲧⲉ ⲡⲭⲟⲥ** لك القوَّة والمجد والبَرَكة والعزَّة إلى الأبد. آمين ... إلخ، هي بحدِّ ذاتها خدمة شُكر، أي بالمفهوم الكنسي خدمة إفخارستيَّا، وخدمة تمجيد أي ذُكصولوجيَّة، لعمانوئيل إلهنا الذي هو الله الكائن معنا، والحال في وسطنا، يسوع المسيح مخلِّصنا الصَّالح. هذه هي صلاة الكنيسة على مدى أيام البَصخة المقدَّسة في اللَّيل والنَّهار، بقلب مملوء بالفرح والسُّرور، نعم بقلب ممتلئ بالبهجة والحبور في أسبوع الآلام المحيية، لأنَّ الآلام خلاصيَّة، قد عبرنا بها في المسيح من الموت إلى الحياة. فلماذا نبقى عند حدود الحُزن والألم، وقد نلنا بآلام المسيح حياة الأبد؟ هي تسبحةٌ، والتَّسبيح لا يتَّفق مع الحُزن. مضادة سرِّ الصَّليب، هي مضادةٌ يتعذَّر شرحها، والخبرة وحدُها هي برهانُها.

ويضاف على هذه التَّسبحة تعبير ''مخلصي الصَّالح'' إلى تعبير ''يارَبِّي يسوع المسيح'' بدءاً من السَّاعة الحادية عشرة من

17- O.H.E. Khs-Burmester, *The Two Services of The Coptic Church Attributed to Peter, Bishop of Behnasa*, in *Le Muséon*, t. 45, Louvain, 1932, p. 2, 3.

يوم الثُّلاثاء من البَصخة المقدَّسة، لأنها السَّاعة التي أعلن فيها يسوع علانية ذهابه للصَّليب. حيث فصل الإنجيل لهذه السَّاعة هو من الإصحاح ٢٥ من إنجيل معلمنا متى البشير، وفي نهايته نقرأ: «ولما أكمل يسوع هذه الأقوال كلها، قال لتلاميذه تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح، وابن الإنسان يسلم ليُصلب».

أمَّا العبارة التي تضاف على هذه التَّسبحة وهي: ''قوتي وتسبحتي هو الرَّب وقد صار لي خلاصاً''، فقد عُرفت أوَّلاً في كنيسة العذراء بحارة الرُّوم بمصر القديمة، في غضون القرن الخامس عشر الميلادي، ثمَّ دخلت إلى عموم الكنائس القبطيَّة ببطء شديد، وعلى مدى عدَّة قرون متتابعة، لأنَّ ''مخطوط دلاَّل كنيسة العذراء المعلقة'' في القرن السَّادس عشر الميلادي لا يعرفها، وأيضاً ''مخطوط دلاَّل كنيسة العذراء حارة زويلة'' في القرن السَّابع عشر الميلادي لا يعرفها.

أمَّا فصل الإنجيل المقدَّس، فيسبقه لحنان، ويعقبه طرح أو تفسير مبسط لفصل الإنجيل. اللَّحن الأوَّل هو المزمور الذي يسبق فصل الإنجيل المقدَّس – وهي آيات منتخَبة من أكثر من أربعين مزموراً – فيقال باللَّحن الأدريبي، فهو في موسيقاه مصري خالص، ولحنه الجنائزي يرقى به إلى الماضي السَّحيق. واللَّحن الثَّاني هو لحن مقدِّمة الإنجيل **Κε ὑπερ τοῦ** (كي إيبرتو) وكلماته هي: ''من أجل أن نكون مستحقين لسماع الإنجيل المقدَّس، نتوسَّل لربِّنا وإلهنا، لنصغ بحكمة مستقيمين للإنجيل المقدَّس'' وكلماته كلُّها يونانيَّة، ممَّا يوضِّح قِدَم هذا اللَّحن في الكنيسة القبطيَّة.

فالألحان الجنائزيَّة في الكنيسة القبطيَّة في أسبوع البَصخة المقدَّسة، كغيرها من الألحان القبطيَّة الأُخرى، هي أعجوبة لا تتكرَّر بين كنائس العالم شرقاً وغرباً. وهو ما حدا بالعالم الموسيقي الإنجليزي إرنست نيولاندسميث Ernest Newlandsmith (١٨٧٥–١٩٥٨م) بأن يعتبرها إحدى عجائب الدُّنيا السَّبع، وأنها إذا رُتِّلت بالرُّوح، يمكنها أن تنير العالم المسيحي كلَّه.

ويعقب فصل الإنجيل قراءة الطَّرح. والغرض منه هو إعادة ترديد ملخَّص لهذا الفَصل، على مدى وقت أطول، وذلك بترتيل بعض آيات فصل الإنجيل جملة جُملة بالقبطيَّة، ليتهيأ للقارئ وقتاً كافياً للتَّأمُّل. ولذلك فحين أُلغيت طريقة ترتيل الطَّرح جملة جملة، واكتُفي بترديده باللُّغة العربيَّة في قراءة عاديَّة فحسب، لم يجد السَّامعون شيئاً جديداً قد أضافه الطَّرح، بل مجرَّد إعادة مقتضبة لفصل الإنجيل الذي قرئ. فكان أن اتَّجهت بعض الكنائس لتجميع طروحات سواعي البَصخة لتُقال كلُّها مجتمعة في نهاية الصَّلاة. وكنائس أُخرى أحلَّت محل هذه الطُّروحات تفسيراً لفصل الإنجيل من مصادر أُخرى.

والطَّرح – بحسب الطَّقس الحالي – له مقدمة وخاتمة، ولكن ابن كَبَر لا يعرف مقدمة الطَّرح، بل خاتمته فقط. وتختتم قراءة الطَّرح بخاتمة يشترك فيها كل الشَّعب على خورسين؛ فيقول الخوروس الأوَّل: ''المسيح مخلِّصنا جاء وتألَّم، لكي بآلامه يخلِّصنا''. فيرُد الخورُس الثَّاني بقوله: ''فلنمجِّده ونرفع اسمه، لأنه صنع معنا كعظيم رحمته''.

أمَّا الطِّلبة التي تُقال في نهاية سواعي الصَّلوات في البَصخة المقدَّسة، فهي على مدى القرون المتتابعة، طلبة واحدة، تُقال في الصَّباح بركوع، وفي المساء بدون ركوع. وهي التي ندعوها اليَوم باسم ''الطِّلبة الصباحيَّة''، فهي ٢٢ أوشيَّة، ومنطوق الأواشي أو الطِّلبات فيها يتوافق مع منطوق الأواشي التي نُصلِّيها في صلواتنا اللِّيتورجيَّة، كما أنَّ لها نصًّا قبطيًّا أيضاً. وهي تحوي أواشي قديمة جدًّا موجودة في القُدَّاس المرقسي (الكيرلُّسي).

أمَّا الطلبة التي ندعوها ''المسائيَّة''، فقد وردت في ''كتاب دلاَّل وترتيب جمعة الآلام وعيد الفصح المجيد'' طبعة ١٩٢٠م فقط، دون غيره من المصادر الطَّقسيَّة القديمة، وليس لها نص قبطي، وهي تفتقر في منطوق صلواتها إلى التَّقليد القبطي، والتَّعبيرات الطَّقسيَّة المعروفة في صلوات الكنيسة القبطيَّة. وهي طلبة رتَّبها المُعلِّم إبراهيم بن سمعان النَّاسخ، الذي أقام بحارة الرُّوم، إلى جوار دير عمته، وكانت وقتها رئيسة دير الأمير تادرس للرَّاهبات. وقد تنيَّح في سنة ١٧٨٥م، أي أواخر القرن الثَّامن عشر الميلادي في زمن البابا يؤانس الملاواني السَّابع بعد المائة. وبعد مائة سنة من نياحة المُعلِّم إبراهيم بن سمعان النَّاسخ، نسخها القُمُّص يوسف رزق الله الرَّاهب (+١٨٨٨م)، في مخطوط رقم (طقس ٥٠/ عام ٥٥) بكنيسة العذراء الأثرية بدير الخندق بالقاهرة. والقُمُّص المذكور رُسم قسًّا سنة ١٨٥٥م وقضى معظم أيامه في دير القدِّيس أنبا رويس الشَّهير بدير الخندق بالعباسية[١٨].

١٨– انظر: مدحت حلمي تادرس، إبراهيم بن سمعان النَّاسخ، مجلَّة الكرازة، السَّنة ٤٦، العدد ١١، ١٢، القاهرة، الجُمعة ٢٣ مارس ٢٠١٨، ص ١٦
القس باسيليوس صبحي، دراسة حول طلبات أسبوع الآلام، مجلَّة مدرسة الإسكندريَّة، السنة الخامسة، العدد الثَّاني، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ١٩٠– ١٩١